في الأدب المقارن

أثر الترف
في الأدبين العربي والانجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود

الترف من مستتبعات الحضارة ، تتجه اليه الأمم عقب عصور النهضات ، إذ يلذ لها الركون إلى الراحة واجتناء ثمرات مجهوداتها التي بذلتها في عهود النهوض والكفاح والتمهيد ، وتميل إلى الاستمتاع بخيرات الحياة من دعة ولذة وسرور في ظل السلام والنظام اللذين تنشرهما الدولة بعد أن توطدت أركانها ، وفي بحبوحة الثروة والنعمة اللتين أتلهما جهاد السنين والأجيال ، فيهجر الشعب رويداً رويداً حياة الخشونة والقناعة والجد ويستكثر من أسباب الراحة والبهجة ، وإشباع مطالب الجسم والنفس ، وبدوات الخيال والشهوة

ويكون أشد الأمم إقبالاً على وسائل الترف ومضيًّا إلى غاياته ، أشدها من قبل تخشناً في العيش ، وأعظمها جلاداً في ميدان تنازع البقاء ، وأتمها ظفراً وغلبة على البلدان ، لما نجنح اليه من الراحة بعد الجهد ، والاستمتاع بعد الحرمان ، ولما تفقده عليها انتصاراتها من أسلاب أعدائها وأرزاقهم ، وما تطلع عليه من وسائل لهوهم وترفهم ؛ ومن ثم انتشرت موجات هائلة من الترف في مصر الفرعونية عقب فتوحها الكبيرة في آسيا ، وفي أثينا عقب امتداد سيادتها على سواحل بحر الأرخبيل وجزره ، وفي روما بعد اتساع سلطانها شرقاً وغرباً

وكلتا الأمتين العربية والانجليزية خرجتا من بداوة وخشونة عيش إلى حضارة وحياة دعة ؛ وكلتاهما أقامتا امبراطورية مترامية التخوم تعج نواحيها بالخيرات والكنوز ، وتمرّت اليهما من جراء ذلك عدوى الترف وبدا أثرها في أدبيهما . بيد أنهما تفاوتتا تفاوتاً كبيراً في مدى تأثرهما بذلك الترف ، فكانت الأولى على الأرجح أعظم الأمم أخذاً بوسائله وتفنناً في ضروبه ؛ وكانت الأخيرة أقلها انقياداً لتياره وأشدها تشبثاً بأهداب الاعتدال

فالأمة العربية ينقسم تاريخها الاقتصادي إلى ثلاثة أطوار كبيرة : فالطور الأول وهو عهد الجاهلية أقرب إلى الفقر والخشونة التي فرضتها على العرب طبيعة بلادهم الضنينة ، مما أورثهم صفات القناعة والصبر والجلد واحتمال المشقات ، كما أورثهم الجود وقرى الأضياف ، فتمدحوا بكل هاتيك الصفات وامتلأ بها شعرهم ، وجاء ذلك الشعر في جملته قوياً متينا بالرجولة مثيراً للاعجاب ؛ ونذر في ذلك العهد شعر المجون والخلاعة ووصف دواعي الرفاهية ومظاهر الحياة الناعمة ، بل كان السادة يتبرأون من الانقياد لشهوات الجسم والنفس . ومن روائع آثار ذلك في الأدب قول حاتم الطائي :

وإني لأستحيي صديقي أن يرى ... مكان يدي من جانب الزاد أقرعا
وإنك مهما تُعط بطنَك حقه ... وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

وقول عنترة :

يُخبرك من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم
وأرى مغانم لو أشاء حويتها ... فيصدني عنها الحيا وتكرمي

وبقيام الدولة العربية دخل العرب في الطور الثاني : طور الحضارة والرفاهية والترف ، وتدرجوا في الأخذ بأسباب ذلك مع مرور الزمن حتى أوفوا على الغاية . ولا غرو فقد اجتمع لديهم من أسباب الترف ما لم يكد يجتمع لغيرهم ؛ فأن نجاحهم الحربي الفجائي أوقع في أيديهم أغنى بقاع الأرض وأخصبها وأعظمها حضارة وترفاً لعهدهم ، وأغدق على كبرائهم ومقاتلتهم فيضاً متلاحقاً من الأموال ، وأدخل في حوزتهم شاسع الأملاك ، وأقام في خدمتهم الجمّ الغفيرَ من الموالي ؛ وسمحوا هم لشتى الأجناس بمخالطتهم والاقامة بين ظهرانيهم ، فجاءت الأمم المقهورة في ميدان الحروب تسلط على الأمة الغالبة ما بذتها فيه من أسباب الرفاهية واللذاذة ، وهي التي كانت من قبلُ سبب سَوْرة وطعزيمتها وإدبار دولتها

وكان كل ذلك جديداً على أعين العرب الذين قضوا الأجيال في شظف البادية وتقتيرها ، فاندفعوا يصيبون من تلك اللبانات ما حرموه طويلاً ، وأغرقوا في استمراء تراث الأمم المغلوبة كما يفرق الوارث الذي طال حرمانه في تبذير ثروة المتوفى الراحل . وكأنما تعجل العربُ في تراث كسرى وقيصر ما وُعدوه في الدار الآخرة من طيبات ؛ ومن ثم ابتنى الخلفاء القصور وحشدوا

لتشييدها الصناع من شتى الأجناس ، ووفروا بها آنق أسباب الدعة والمتعة ، وحشروا فيها الغلمان والقيان ، وبالغوا فى إعداد الموائد والأسمطة ، وأكثروا من الألوان والصحاف ، واستمتعوا بالغناء والشراب ، ورفلوا فى فاخر الثياب ، واحتفوا بالمواسم والأعياد والمهرجانات ، وأسرفوا فى أعراسهم حتى ضربت ببعضها الأمثال ، ولم يدعوا متعة من متعات النفس أو لذة من لذات الجسم إلا استاموها

واحتذاهم فى ذلك الأمراء والكبراء وكل من أطاقه من عامة الشعب ، فانتشرت مجالس الشراب والغناء ، وأحكمت أوضاعها وارتقت آدابها ، وراجت صناعة المغنين وحذقوا فنهم وجودوه ، وراجت تجارة الرقيق ونفقت سوق الجوارى ، وأخذن بالتثقيف والتهذيب ليجمعن فتنة اللب إلى فتنة النظر ، وأولع الناس بالرقة والظرف والكياسة ، ونفروا من الخشونة وتندروا بالجلافة والغفلة ، واحتفوا بالمواسم يشخصون فيها إلى الرياض أو الأديرة فى أرباض المدن ، يتنادمون ويتمزلون

وأثر تلك الحياة المترفة جلى فى الأدب العربى ، بل لعله أكبر فارق يفرق أدب ما بعد الاسلام والحضارة عن أدب الجاهلية ، إذ أن الأدباء اهتموا بتصوير مظاهر ذلك الترف كلها ، بل كانوا من أشد الناس حرصاً على الانغماس فيه ، بل تجمعوا فى العواصم طلباً لأسبابه ، وكان منهم من صاحبوا الخلفاء والأمراء فى مجالس شرابهم وسماعهم وساعات تبطلهم واستمتاعهم ، وجلسوا إلى موائدهم وشاركوا فى محافلهم ومهرجاناتهم ، وكل ذلك ضمنوه مدائحهم لأولئك الحكام ؛ وكان شهودهم تلك المشاهد وما يحوكونه فيها من القصائد ، من متعات السرور والأنس ، ومستلزمات الأبهة والعظمة

ومن ثم يحفل شعر بشار وأبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن المعتز وابن الرومى وابن حمديس وكثيرين غيرهم بأوصاف القصور والحدائق والنافورات ، وسفائن النزهة وكلاب الصيد ، وألوان الطعام والفاكهة والأسمطة ، ومجالس الشراب وحذاق المغنين وحسان المغنيات ، والمحافل والمواكب ، كما امتلأ بالنسيب الذى كان أغلبه نسيباً بالجوارى دون الحرائر ، والذى امتزج بكثير من الخلاعة والفجور ؛ وروى الشعراء فى كل ذلك عن ممدوحيهم من الأمراء تارة ، وعن أنفسهم تارة أخرى ، وصوروا فى الحالتين حياة الترف المغرق التى طغى سيلها فى عهود العباسيين والفاطميين وخلفاء الأندلس وغيرهم

وقد ظفرت الخمر من بين أسباب الترف هاتيك بالمكانة الأولى فى النفوس ، وفازت بالحظ الأوفر من حفاوة الشعراء ، فكانت معقد السرور ومناط الأنس ورمز الصفاء ؛ وتفنن الشعراء فى تمجيدها ووصف تأثيرها ووصف مجلبها وساقيها وكأسها ، وطلبوا البراعة بالابتكار فى تلك الوجوه ، وخلعوا العذار واطرحوا التدين فى التوفر عليها والتغنى بها ، وهزئوا باختلاف الفقهاء فى تحليل بعض أنواعها وتحريم بعض ، وظفرت الخمر فى الأدب العربى بمنزلة لا تبارى فى أدب آخر ، وسما شأنها حتى زاحمت النسيب على مكانته الموروثة من عهد الجاهلية ، فأصبح وصف الخمر كالتشبيب والوقوف بالدمن وسيلة تقليدية من وسائل استهلال القصيد

ومن أجل الشعر فى وصف أسباب الرفاهية تلك ، قول ابن الرومى الذى يختمه بتحسره على حرمانه مما يصف ، إذ أصبح التلهف على أسباب النعيم ديدن الشعراء ، وكانوا من قبل فى الطور السابق كما تقدم يتبرأون من الاستسلام للترف والشهوات :

فى أمور وفى خمور وسمو ... ر وفى قائم وفى سنجاب
فى حبير منمنم وعبير ... وصحان فسيحة ورحاب
فى ميادين يخترقن بساتي ... ن تمس الرؤوس بالأهداب
عندهم كل ما اشتهوه من الآ ... لات والأشربات والأشواب
والطروقات والمواكب والوا ... دان مثل الشوادن الأسراب
والغوالى وعنبر المند والمس ... ك على الهام واللحى كالخضاب
لم أكن دون مالكى هذه الأشـ ... ـياء لو أنصفَ الزمان المحابى

وقد بلغ من ولع كثير من الشعراء باجتناء ثمار تلك الحياة المترفة الفارقة فى اللذات ، أن خصصوا أشعارهم لمدح الأمراء بغية أن يُقرّبوا ويُغدقوا طرفا من ظل تلك النعمة السابغة ، ويشاركوا ممدوحيهم فى أبهتهم ولذاتهم ، وبغية النوال ينفقونه فى ارتياد مواطن اللهو التى حفلت بها المواسم ، ويبذرونه فى مجالس الشراب والنزل يعقدونها فى دورهم أو فى دور المغنين والنخاسين أو فى الحانات والأديرة ؛ ومن ثم امتلأ شعرهم بالمدح من جهة ، ووصف الملاهى من جهة أخرى ، وراح بشار مثلا يفخر بكلا الأمرين : باقتناص أموال الملوك ، وانتهاب سوانح اللذات ، قال :

وإنى لنهّاض اليدين إلى العلا ... قروعٌ لأبواب الهمام المتوج

وقال :

قد عشت بين الريحان والراح والـ جزهر فى ظل مجلس حسن

وبعد طور الثروة والترف هذا جاء الطور الثالث طور الفقر والانحلال ، حين استنزفت موارد البلاد ، وعظمت مفاسد الحكام ، وتحدت العزائم من جراء الانهماك فى ذلك الترف ، وفدحت الضرائب الأهلين ، وتنازع الأمراء والولاة . وقد كان جانب كبير من الشعب يشقى ويألم فى عهد الرخاء والترف السالف ؛ أما فى هذا العهد فعم الشقاء ، وانتشر الخراب ، وكسدت الصناعات ، وظهر القحط وتتابعت المجاعات

ولم يبق معتصما بربوة الترف فوق سيل هذا البؤس إلا القليل ومنهم الأمراء الذين يتنازعون الحكم ويرهقون الأهالى بالمغارم ليتشبثوا بمظاهر الملك والفخفخة ويتشبهوا بالسابقين فى الجاه والأبهة ؛ يسلبون الناس أرزاقهم باليمين ليمنوا عليهم باليسار بالأثواب والأطعمة فى المواسم والأعياد كأنما يأبون أن يطلبوا الرزق من وجوهه الشريفة ، ولا يريدونهم إلا عجزة مستجدين يفزعون إلى بر الأمير ويتمدحون بجوده . تلك كانت حال مصر مثلاً فى فترات طويلة من حكم الفاطميين والمماليك ؛ وتلك كانت حال الأندلس على عهد بعض ملوك الطوائف الذين لم تكن الحرب بينهم تهدأ ، حتى لقد تشابه تحت الأمراء ذوو الجيوش وقطاع الطرق أصحاب المصادرات والمناسر . وقد أوجز بعض شعرائها وصف عبث الأمراء برفاهية البلاد فى قوله المفعم بالحسرة :

أطاعت أمير المؤمنين كتائبٌ تصرّفُ فى الأموال كيف يريد

فثالث الأطوار المشار اليها فى بدء هذه الكلمة هو طور العوز والبؤس الذى جاء رد فعل لطور الاسراف فى الترف ، كما يجىء الخمار عقب الاسراف فى الشراب . وفرق ما بينه وبين فقر الطور الأول أن الأول كان فقراً طبيعياً معتدلاً قضت به البادية على أبنائها وحصنتهم منه بالخلق المتين ؛ والأخير فقر منشؤه الافراط والتفريط ، وحليفُه الذلة والمسكنة واللئيم من الطباع ، وفى طيه الشره والشهوة المكبوتة والتلدد والحرمان . وقد انعكس كل ذلك فى أدب هذا الطور إذ جاء ضاوياً سقيما مملوءاً بالشكوى والتوجع ، منطوياً على تمويهات المعانى ومخادعات الألفاظ التى تحكى ما كان يجيش به المجتمع من تمويه

هكذا جرى العرب من الترف إلى أبعد غاياته ، ثم كانت سقطتهم من بعد ذلك بعيدة المهوى . أما الانجليز فأنهم وإن شابهوا العرب ومن قبلهم الرومان فى تأسيس امبراطورية ضخمة ، كانوا نسيج وحدهم فى توق اعراض الترف وتحاشى عقابيله التى يجرها على المجتمع ، والتى تحدث ابن خلدون وغيره من علماء الاجتماع بهدمها لصروح الدول ، لما تسلب أبناءها من صفات النخوة والجهاد والغلبة ، فلم يمسَّ الترفُ المجتمع الانجليزى والأدب الانجليزى إلا مساً خفيفاً ، وفى عهود قصيرة ، وذلك للظروف التى أحاطت ببناء الامبراطورية

فقد شيدت الامبراطورية الانجليزية ببطء وتدرج ، لا بسرعة كما شيدت الامبراطورية الرومانية ، ولا فجاءة كما بنيت الامبراطورية العربية ، فلم يغمر المجتمع الانجليزى سيلٌ مفاجىء من الثروة ؛ وبنيت الامبراطورية فى العصور الحديثة فلم يتبع الانجليز الطريقة القديمة من انتهاب أموال العدو المهزوم وأسر المقاتلين أو المسالمين واسترقاقهم ؛ ولم يستأثر الملوك والقواد بغنائم الحرب وثمرات الفتح ، فتنحصر الثروة فى طبقة محدودة تسرف فى اللذات بينما بقية الشعب محروم ، بل كان الاقليم المفتوح حرباً يفتح للتجارة الانجليزية ورجال الأعمال الانجليز صغارهم وكبارهم ، فجاء توزيع الثروة بين طبقات الشعب أكثر تعادلاً مما كان فى المجتمع العربى

أضف إلى ذلك أن الانجليز لم يخالطوا الشعوب المفتتحة ولم يسمحوا لأبنائها أن يملأوا عليهم وطنهم الأول ولم ينتقلوا هم إليهم بحواضرهم كما فعل العرب ، ولم يأخذوا عنهم ضروب لهوهم وترفهم ولا غير ذلك من مظاهر الحياة ، لأنهم كانوا عادة يفتتحون أقاليم أقل منهم حضارة ، لا يستسيغون ما عندها من ضروب المتع ؛ وظل الانجليز فى بلادهم بعيدين عن تأثيرات أملاكهم ، متمسكين بتقاليدهم القومية وعوائدهم وأنظمتهم التى نمت وتوطدت قبل الالتفات إلى ما وراء البحار

هذا إلى أن الامبراطورية لم تشيد إلا وقد كسرت شوكة الملكية فى إنجلترا واستتب النظام الدستورى ؛ والملوك المستبدون هم عادة رادةُ الترف فى ممالكهم والموحون إلى رعاياهم باغتنام اللذات والملاهى ، يتوفر أوائلهم على تأسيس الدولة وتأثيل السلطان ، ثم يكف أخلافهم على الترف والأبهة واتباع الشهوات ، ويقتدى بهم من هم دونهم . كذلك كانت الحال فى الدولة العربية حيث توطد سلطان الملك بامتداد أطراف الامبراطورية ؛ أما فى انجلترا حيث كف الملك عن أموال الدولة

أن يبذرها ، فقد ظل الملوك متبعين سياسة الاعتدال ، فلم يكونوا قدوة سيئة لغيرهم من الطبقات

إنما فشا الترف والفساد فى المجتمع الانجليزى فى أواخر القرن السابع عشر حين عادت الملكية منتصرة من فرنسا مستعيدة بعض ما ضاع من نفوذها ، مصحوبة بالفرسان الانجليز الذين عاشوا زمناً فى المجتمع الفرنسى ، والفرسان الفرنسيين الذين شبوا فى بلاط لويس الرابع عشر ، فعج البلاط الانجليزى بمظاهر الترف وأسباب الغواية ، وفشا ذلك منه فى طبقات الشعب ، وساعد على ذلك تبرم الناس بما كان حكم المطهرين الغلاة قد فرضه عليهم قبل ذلك من كبح وتزمت ، وبدا أثر ذلك الترف والفساد الخلقى فى درامة ذلك العهد

وانتشر الترف كرة أخرى فى بعض القرن الثامن عشر بين طائفة ارباب الأعمال الذين أثلوا لأنفسهم ثروات ضخمة بشريف الوسائل وخسيسها فى الولايات الهندية قبل أن تشرف الحكومة الانجليزية على إدارتها ، وعادوا إلى أوطانهم مكاثرين بطارف أموالهم مستكثرين من مظاهر الأبهة والفخفخة ، وعرفوا بالنواب تشبيهاً لهم بأمراء الهند ؛ ورأى فيهم أدباء العصر مواضيع شائقة لكتاباتهم الساخرة ، وأولع بهم ما كنزى وكوبر وغيرهما طويلا ؛ على أنه فى كلتا هاتين الحالتين كانت النوبة عارضة قصيرة الأمد ضيقة الحيز ، صمد لها الخلق القومى ، والطبع الانجليزى الهادئ ، وتغلبت عليها تقاليد الأيام المتعاقبة وعاد الاعتدال شعار البلاط والمجتمع والأدب

فالأدب العربى قد حوى من آثار الترف الشىء الكثير ، بل حوى من ذلك ما لعل أدباً آخر لم يحوه ، وحفل بالرائع من الأوصاف لتلك الآثار ، وإن نبا بعضها أحياناً عن الذوق السليم والخلق الكريم . ولا ريب أن ميله هذا إلى زخارف العيش وولعه بتصويرها كان مما جنح به أخيراً إلى زخرف الألفاظ وأنيق المعانى . أما الأدب الانجليزى فظل رجاله غالباً بعيدين عن موائد الأمراء ، وظل الاعتدال فى أغلب العصور رائده ، بعيداً عن زخارف الحياة المترفة وزخارف الألفاظ المنمقة معاً ، وكان رجاله أشد شغفاً بتصوير دخائل النفس الانسانية ووصف محاسن المناظر الطبيعية منهم بوصف قصور الأمراء ومحافلهم ومواكبهم .

فتحى أبو السعود

تاريخ ابن خلدون

المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدا والخبر

المقدم لحمى النهضة العلمية فى الغرب الأقصى حضرة صاحب الجلالة سلطاننا المحبوب سيدى محمد حفظه الله

أكبر سلفة تاريخية لأكبر مؤلف فى التاريخ ، وأصح الحقائق العمرانية لأشهر من كتب فى العمران ، وأدق تحليل لحوادث الماضى وتعليل لوقائعه وتمحيص لحال ملوكه ووزرائه وأمرائه وأبطاله ، وقد عنى بطبعه حضرة الحاج محمد المهدى الحبابى نقلا عن نسخة كاملة الأجزاء إلا جزءاً واحداً بامضاء المؤلف نفسه أثابه الله ، وقد ظهر منه الجزء الأول وظهر كذلك الجزء الثانى الملحق للجزء الأول محتوياً على تعليق بقلم شيخ كتاب العصر الأستاذ الأكبر الأمير شكيب أرسلان مضبوطى الأعلام بعناية أستاذين عظيمين من أساتذة الغرب وهذه هى النسخة الوحيدة المستكملة الوافية البالغ فى تصحيحها مع إضافة النقص الذى كان موجوداً فى الطبعة السابقة

الحلل السندسية

فى الآثار والأخبار الأندلسية

المقدم إلى صاحب السمو الأمير عمر باشا طوسون حفظه الله

هى السلفة التاريخية التى جاد بها الدهر على بخله ، وجادت من نابغة الزمان وأمير البيان الأمير شكيب أرسلان دليلا من أدلة تفرده وسعة علمه واطلاعه وغزير فضله ، وقد خرجت هذه الطرفة العالية فى موضوعها طرفة أخرى فى وضعها وطبعها ، وظهر الجزء الأول والثانى منها شفاء لصدور الباحثين المتقين ، وسيصدر الجزء الثالث منها بعد بضعة أيام وهو كسابقيه نفاسة واستيفاء وتحقيقاً وإيضاحاً

والكتابان ابن خلدون والحلل السندسية يطلبان من طابعهما وناشرهما الحاج محمد المهدى الحبابى بالمطبعة الرحمانية أو بوستة النورية من مكتبة النهضة أمام الأهرام ومن لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن مجلة الرسالة بمابدين ومكتبة الهلال ومكتبة المعارف بالفجالة ومكتبة الخانجى وجميع المكاتب الشهيرة وثمن الجزءين ثلاثون قرشاً

فعلى المشتركين أن يتفضلوا بارسال ثمن الجزء الثالث مقدماً من الكتابين ابن خلدون والحلل السندسية

لنرسل لحضراتهم الجزء الثانى من الكتابين اللذين تم طبعهما